

تأملات في الأدب والحياة

للأستاذ اسماعيل مظهر

الثقافة التقليدية :

الحربية ، ومذنية العرب وأساسها الإسلام والأدب العربي ، منارة نستشرف منها ما نحتاج من مبادئ عامة فنحور من براجمنا التعليمية وخططنا الثقافية بما يلائم طبيعة التقاليد الماثورة عنهما ، ذلك بأن الثقافة التقليدية في نفسية الأمم وعقليتها بمثابة الصفة الوراثية في الفرد ، لا تنفك الأمم عن الأولى أو ينفك الفرد عن صفة تلقاها عن أسلافه

في مقالات بعنوان « التعليم والحالة الاجتماعية » نشرتها في الرسالة الغراء منذ حين ، روجت لنظرية استخلصتها من تاريخ الأمم ودعوتها لنظرية « الثقافة التقليدية » . ومؤدى هذه النظرية أن لكل أمة من الأمم ثقافة ماثورة تنتقل على الزمن من أهل إلى أهل ، وتتوارثها الأمم طبقة بعد طبقة ، وأن الثقافة التقليدية الخاصة بكل أمة من الأمم أو سلالة من السلالات ، لها من الأثر في الحالات الاجتماعية ، ما للصفات الوراثية الحيوية من الأثر في الأفراد ، وأن شباب الأمم من حيث القدرة على الرقي والاحتفاظ بصورة من المدنية تلائم مقتضى البيئة والظروف القائمة من الدنيا الحافة بالأمم ، إنما يرجع في الحقيقة إلى استمساك الأمة بثقافتها التقليدية وانحاذها أصلاً ثابتاً يدرس فيه ما يتجمل من ثقافات الأمم الأخرى ، فتتكيف هنالك المبادئ المنتحلة ، تكيفاً ملائماً لطبيعة ما توارثت الأمم من ماثور ثقافتها التقليدية . وبذلك تحتفظ الأمة بطابع خاص وتجري تطوراتها الاجتماعية والعقلية والنفسية على قاعدة ثابتة وأسلوب راسخ ، فتأمن بذلك شر الفورات الفجائية والثورات المحتاجة والكوارث الاجتماعية الفنية ، ويكون لها من مجموع ما حفظت من ماثور أسلافها ضابط يضبط نزوات الأفراد ، ويهيئ المجموع بعقلية ذات طابع تقليدي تكون لها بمثابة الكساحة التي تصدها عن التورط في نواح من التطور غير مصبوبة المعايير ، أو التماق بأذيال فكريات ومبادئ مريضة النطق ، بميدة عن حاجتها الأولية التي تضمن لها الاتزان والتعقل في طريقها إلى أسس جديدة من المدنية أو الرقي العقلي

ولقد أردت بهذه النظرية أن تكون أساساً لسياسة التعليم في مصر ، فنتخذ من الأصول التقليدية التي قامت عليها المدينتان العظيمتان ، مدينة الفراعنة في مصر ، وأساسها الزراعة والقوة

هذه النظرية على ما فيها من بساطة في الظاهر تحتاج في إثبات حقائقها إلى تأملات تاريخية عميقة ، ينفذ الباحث من طريقها إلى أبعد غور من الأعماق التي ينزل إليها قارى التاريخ المسمى . فإن وراء الحوادث الظاهرة في صفحات التاريخ كاتقراض الأمم المالكة ، أو فتوح البلاد ، أو اندحار الجيوش وانتصارها ، أو قيام الحكومات المختلفة وسقوطها ، أو تسلط الأفراد على الأمم وإطراح الأمم لسلطة الأفراد ، حقائق أخرى تصدر عن صفات نفسية تختفي من وراء الحوادث الظاهرة ، فنكون بمثابة القوة المحركة أو الطاقة في المادة ، فهي بخصية بأعيانها ، ظاهرة بأفكارها . وهذه القوة إنما يمكن وتستثنى طوعاً لظروف خاصة ، وتظهر وتستقوى على غيرها طوعاً لظروف أخرى ، وهذه الظروف التي تكمن معها القوى المحركة للجماعات أو تظهر ، ينبئ أن تكون موضوع كل من يكب على التأمل في الثقافات التقليدية لدرس ما لها من أثر في كيون هذه القوى أو ظهورها ، بحسب ما يحيط بالجماعات من ظروف تبعدها عن ثقافتها التقليدية أو تقربها منها

أما إذا أردنا أن نستوثق من حقيقة هذه النظرية ، فغلبنا أن نرجع إلى التاريخ ، علينا أن نرجع إلى أقرب تاريخ منا ، أي إلى تاريخ العرب . فإن الأمة العربية سادت الدنيا عندما استمست بمرى ثقافتها التقليدية ، وفقدت الدنيا عندما انحرفت عن الاسترشاد بثقافتها الماثورة . وكذلك كان شأن روما وشأن اليونان قبل العرب . أما الدورات التي انتابت الأمم متراوحة بين الاستملاء حيناً والتكسُّس حيناً آخر ، فإني إلا دورات تقرأ فيها صوراً من التطور ترجع في حقيقتها إلى استمساك الأمم بثقافتها التقليدية حيناً ، وتفريطها في ذلك حيناً آخر

فعلينا إذن أن نرسم لمستقبلنا خطة نتخذ فيها ثقافتنا التقليدية نبراساً نستضيء به ، وإلا فانا سوف نظل نتخبط في الظلام فلا نستقر

مارس :

قد تقرأ تاريخاً كاملاً كتاريخ الاسكندر المقدوني ونوحاته الكبيرة ، وقد تستجلي في هذا التاريخ صوراً من شجاعة الرجل ومن إقدامه ، وقد تجد في انتصار من انتصاراته سبباً للتأمل والمبرة ؛ غير أن كل هذا لا يدلك على حقيقة الرجل قدر ماتلك حادثة من الحوادث الصغيرة في حياته

بعد أن هزم الاسكندر جيش فارس الهزيمة الأولى ، تقدم بجيشه نحو « طرسوس » ، وهي مدينة حصينة من مدن آسيا الصغرى ، تعرف في التوراة باسم « طرشيش » ، وجاء عيون الاسكندر يخبرونه بأن الجيش الفارسي قد عزم على أن يهبط المدينة ويحرقها إذا لم يبادر الاسكندر باحتلالها . فترك قائده الأكبر « قرمينيون » على رأس المشاة وتقدم الفرسان منحدرًا من الجبال الهاوية بمقربة من البحر ، إلى السهل الذي تستوى فيه طرسوس ، وجد في السير ، حتى يتسنى له أن ينقذ المدينة قبل أن يفعل بها الفرس ، والسهل الذي تستوى فيه المدينة شديد الحر كثير الرطوبة ، وقد أفرغ الاسكندر على جسمه درعه الثقيل وعدة حربه ، ممتطياً صهوة جواده المسمى « بوقيفالون » ، فقطع أميالاً من الوهاد والوديان ، حتى إذا أشرف على المدينة ، كان قد بلغ منه العطش ، فزل على ساحل نهر « البردآن » وخلع درعه واستحم في النهر ، والظاهر أن هذا النهر ينبع من الجبال ويستمد مائه من ينابيع باردة ، فآؤه مثلج بفطرته ، ولقد أصاب الخليفة المأمون مرض إثر استحمامه في نهر البردآن فات ، ولقد أوشك الاسكندر أن يموت ، كما مات خليفة المسلمين من بعده ؛ ولزم الاسكندر فراشه بعد أن دخل « طرسوس » وشاع أن حياته في خطر

كان من الأطباء الذين يمتون به ، طبيب شيوخ يدعى « فليب الأكرناني » ؛ وكان من قبل طبيباً لأبيه ومن المتفانين في خدمة بيت مقدونيا المالك ؛ وقد أفر جميع الأطباء بأن الاسكندر سيؤوس منه ، إلا هذا الرجل ، فإنه نصح للاسكندر أن يذعن

إلى رأيه وأن يشرب جرعة سيمدها له بنفسه ، ورضى الاسكندر بذلك على رغم عناده ؛ وخرج الطبيب من حجرة الملك المريض ليعد جرعة الشفاء

في اللحظة التي خرج فيها الطبيب إلى الحجرة ، دخلها رسول من قبل قائده « قرمينيون » يحمل رقعة في يده ، فقدها إلى الاسكندر ؛ وكانت تحذيراً للاسكندر من طبيبه « الأكرناني » فقد اتصل بسمع القائد أن الطبيب مالا الفرس عليه وأنه تلقى منهم رشوة ليدس له السم في الدواء

كان الاسكندر قد أتم قراءة الكتاب لما دخل عليه الطبيب حاملاً الجرعة التي أعدها ؛ فتناول الاسكندر الجرعة بيده اليمنى وناوله الرقعة بيده اليسرى ؛ وطفق الاسكندر يكرع الجرعة ، والطبيب ينظر في الرقعة نظرات جامدة حيرى ؛ ثم ناول الاسكندر الكأس الفارغة للطبيب ، وناول الطبيب الرقعة للاسكندر ؛ ونظر كل من الرجلين في وجه الآخر برهة ، ثم استلقى المريض على فراشه ، وانصرف الطبيب إلى شأنه ، من غير أن ينبس أحدهما ببنت شفة .

ألست تجد في هذا الحادث الصغير معنى عظيماً يدل على أن القلب الذي حمله الاسكندر كان جديراً بأن يفتح العالم ويدوخ الدنيا برمتها ؟

هاجعة اللغة العربية :

قد تكون لتتنا العربية السمجاء في حاجة إلى كثير من وجوه الإصلاح . قد تقول بأن كتب النحو ضائعة وأن قواعد الصرف مشتتة ، وقد تقول إن أدب العربية لم يخدم بعد الخدمة الواجبة ، بل تقول إن اختلاف مذاهب النحويين ، وجود الكثير من اللغويين أمران لابد من النظر فيهما وإصلاح شأنهما بما يلائم حاجات أبناء العربية في هذا العصر ، كل هذا وأكثر منه صحيح ، والحاجة إليه ماسة ؛ غير أن أحوج ما نحتاج إليه اللغة العربية المعجمات ؛ وأول ما نتكلم في المعجمات القديمة

أما هذه فأمّا مطولة ترضى نزعة الباحث الذي تمكن من الأدب وربى فيه الذوق الأدبي ، فأدمن البحث وطلب الاستقصاء ؛ وإما مختصرة اختصاراً غلّا في كثير من نواحي الارشاد اللغوي ؛ وليس بين هذين وسطاً يسد طلبك الأدبي

أما الطائفة الكبرى والمصيبة العظمى فتشعر بها إذا قارنت بين الأسماء القديمة والحديثة الواردة في كتب التاريخ أو الجغرافية ، فقد تقرأ الاسم الواحد الدال على ذوات بعضها مرسوماً بعدة أهجية مختلفة في كتب مختلفة أو في كتاب واحد ؛ فقد يتفق أن يكون المؤلف قد اعتمد على كتب إنجليزية نادرة وعلى كتب فرنسية نادرة أخرى ؛ لينتقل الاسم الواحد كما بلفظه ويرسمه الانجليز مرة ، وكما بلفظه ويرسمه الفرنسيون مرة أخرى ؛ ولا تبلغ بليلة الألسن في هذه الناحية من الفساد ميانها في نقل الأسماء القديمة ، وبخاصة إذا كانت أسماء عرفها العرب ، فقد قرأت في كتب غثافة الأعلام الآتية : مرجراط ، مرجرات ، مرغرات ، مرغراط ، مرج راهط ، مرج راهد ، مرجراء ، وكلها للمرومة المروفة في مرج راهط ؛ وقرأت : رقطيس ، رانيس ، راقطيس ، راقوده ، رقوته ، وكلها للمستعمرة الاغريقية المروفة راقوطيس في شمال الدلتا في تاريخنا القديم وهي راقوده عند العرب ؛ وقد أذكر أن الفروق في رسم الأعلام قد بلغ من الاختلاف في أسماء أخرى مبلغاً لا يدركه أشد الواقفين على حقيقة الأسماء القديمة ، ولا شبهة عندي أن مبتدئاً في درس التاريخ أو الجغرافية إذا وقع له مثل هذا في كتب مختلفة أو كتاب واحد لظن لأول وهلة أن اختلاف الرسم يدل على اختلاف الذات .

هذه الحال تحفزنا إلى الدعوة لوضع معاجم لأسماء الأعلام ، فنحتاج إلى معاجم في أسماء الأعلام القديمة ، ومعاجم لأسماء الأعلام الحديثة ، ومعاجم تضبط فيها أسماء الأعلام العربية ، وإن من الأسماء العربية ما تقرأ على أوجه عديدة إذ لم يكن تام الضبط بالشكل الكامل

لم أتناول في هذه الكلمة إلا بعض حاجة اللغة العربية إلى المراجع ، فهل قدرنا كل ذلك ؟ وهل اتخذنا المدة للعمل ؟ وهل لهذا العمل ظهراء من أغنياء هذا البلد والقائمين على أمراء ؟ نرجو مؤملين أن تتوجه الجهود إلى هذا العمل إن كانت الرغبة فيه موجودة ، ونرجو أن يتضافر الكتاب والباحثون على خالق الرغبة فيه إذا لم تكن موجودة اسماعيل مظهر

المبار في رياض الأدب عبور المستفيد ، فلا هو المستفيع ولا هو بالقانع بما بين يديه ، وهؤلاء هم جبهة الأدباء عندنا ، بل وفي كل الأمم . فاهيك بأن معجانتنا القديمة قد تركت كل مادة علمية من المواد التي عرفها العرب ودرسوها من غير تعريف ؛ فهذه دُويَّةٌ ، وذلك طُويَرٌ ؛ وهذا نبت يكون في المراق ، وذلك عرق في الساعد أو الزند ؛ وكذلك صفة الأمراض ، أفي الانسان كانت أم في الحيوان ، فقد قرأت في صبح الأعشى من عيوب الخيل ما يزيد على المئة عيب ، كلها ، كما أعتقد ، تمت إلى أمراض ؛ غير أنك قلما تقع على عبارة تشخص لك المرض أو أعراضه الصحيحة ؛ فمعجانتنا ناقصة من هذه الوجهة نقصاً شائناً ، فاهيك بأن في كتب الأدب والتاريخ والخطط والشعر والتراجم ألقاظاً لم تدخل الدججات القديمة ؛ ولا تقصد بذلك الألقاظ المولدة ، بل تقصد بها ألقاظاً فصيحة صحيحة ، فالمعجانات القديمة إذن لم تحط بكل ما في العربية من مادة لغوية ؛ وهذا نقص نضيفه إلى ما عُدُّنا قبل .

نتكلم بمد هذا في أنواع المعاجم التي نطالب الآن بوضعها لنتم حاجة اللغة ؛ وأول ما نحتاج إليه المعاجم التي تقابل فيها مفردات لغتنا ، مفردات لغة أخرى ؛ وليست الحاجة في هذا مقصورة على لغة أو لغتين فإن الواجب يحتم علينا أن ننظر إلى كل اللغات الحية ، بل وبعض اللغات غير كثيرة الانتشار ، لنضع لها معجانات تقابل مفرداتها مفردات من اللغة العربية ، على غرار ما نرى في المعاجم الكثيرة عند الأمم التي أدركت ما للمعاجم من أثر في إحياء اللغات ونشر الثقافة والمعرفة .

تأتي بمد ذلك حاجتنا إلى المعاجم الخاصة بالعلوم والفنون ؛ فلست نجد الآن معجماً واحداً يرضى حاجة المختصين في علم من العلوم أو فن من الفنون ويسمفهم بالكلمة الصحيحة والتعريف الكامل للمصطلحات التي تصادفهم أثناء مجيئهم ؛ وهذا نقص معروف شائع ، فلا حاجة إلى التوسع في شرح الحاجة إلى سدِّ نقرته ؛ وإنما يتبقى لنا أن نتعرف أن أمامنا في هذا بجهود شاق طويل علينا أن نبذله وأن نضحي فيه بالجهود والمال والدين والمافية